مراجعة كتاب:
إيمانويل تود وتفكيك سردية الهيمنة: قراءة نقدية في أطروحة هزيمة الغرب

تأليف
إيمانويل تود

مراجعة بقلم
سميرة إبراهيم عبدالرحمن

رئيس مترجمين أقدم في مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية/جامعة بغداد

يُعدّ كتاب "هزيمة الغرب"[1] للمؤرخ والأنثروبولوجي الفرنسي إيمانويل تود (Emmanuel Todd) (المولود 1951) حلقة جديدة في سلسلة من الأطروحات المثيرة للجدل التي طالما أثارتها كتاباته بشأن انحدار النماذج الغربية، وبخلاف كونه مجرد تحليل سوسيولوجي، يكشف تود في هذا العمل عن منظور تفكيكي يتجاوز التفسير التقليدي لصعود الغرب وانحداره، فالكتاب لا يدرج ضمن الدراسات الوصفية للظواهر السياسية والديموغرافية، بل يشكّل مساهمة نقدية صارمة في فضح التناقضات الداخلية التي نخرت البنى الغربية، ثقافيا واقتصاديا وجيوسياسيا.

ومع أن أعماله السابقة مثل "السقوط النهائي" (1976) (The Final Fall: An Essay on the Decomposition of the Soviet Sphere) و "الوهم الاقتصادي" (1998) (L'illusion économique) و "ما بعد الإمبراطورية" (2006) (After the Empire: The Breakdown of the American Order) ، وكذلك كتابه "الحرب العالمية الثالثة بدأت بالفعل" (The Third World War has already begun) (الصادر في اليابان عام 2022)[2]، تصنّف ضمن كلاسيكيات العلوم الاجتماعية، فإن "هزيمة الغرب" يتجاوزها من حيث راديكاليته

التحليلية؛ إذ يعيد النظر في فكرة المركزية الغربية، ويقدم رؤية تتحدى السرديات السائدة بشأن تفوق الأنموذج الغربي وقدرته على البقاء.

اختار إيمانويل تود عنوان "هزيمة الغرب" عمدا لإثارة الانتباه، وشحن النقاش العام، مستثمرا اللحظة التاريخية التي تتكثف فيها المواجهات الجيوسياسية بين الغرب والشرق بأجنداتهما المتشابكة، فالكتاب لا يصدر في فراغ، بل يأتي في سياق احتدام الصراع في أوكرانيا، إذ يقف الغرب بدعمه العسكري والاقتصادي والإعلامي، وفي غزة، حيث تتخذ المواجهة طابعا أكثر تعقيدا من حيث التخطيط والتنفيذ، غير أن العنوان لا يستمد ثقله من اللحظة فحسب، بل أيضا من المسار التنبؤي السابق لتود، الذي اكتسب شهرة منذ كتابه "السقوط الأخير" الصادر عام 1976، والذي تنبأ فيه بانهيار الاتحاد السوفيتي، وهو ما تحقق فعليا عام 1990، هذا السجل من التنبؤات المحققة جعل من تحليلاته موضوعا لاهتمام وسائل الإعلام الكبرى، التي وجدت في أطروحاته نافذة جادة لفهم تحولات النظام العالمي، ومستقبل الهيمنة الغربية.

يحمل عنوان "هزيمة الغرب" في طياته نية واضحة ومدروسة من جانب إيمانويل تود، إذ لا يكتفي بالإشارة إلى تراجع الغرب، بل يقدمه كدعوة صريحة لمواجهة جذرية للتحديات الجيوسياسية التي يعيشها العالم المعاصر، في هذا السياق، يذهب تود إلى طرح صادم حين يؤكد أن "أفضل ما يمكن أن يحدث لأوروبا هو أن تختفي الولايات المتحدة، عندها سنعيش في سلام"، مشيرا إلى أن غياب واشنطن سيسمح لأوروبا بالخلاص من "الليبرالية الأوليغارشية"، التي يصفها بأنها "طبقة من السياسيين والجيوسياسيين عديمي الأخلاق تهيمن على القرار الأمريكي".

هذا الخطاب الذي يتبنى أطروحات حادة تجاه الغرب لم يمر من دون إثارة جدل عالمي واسع، خاصة مع تفسير تود للحرب الروسية–الأوكرانية كنقطة تحول تنذر بتراجع النفوذ الغربي، ففي مقابل نقده اللاذع للغرب، يعتمد تود قراءة متسامحة نسبيا تجاه روسيا، معتبرا أن الحرب كان يمكن تفاديها منذ عام 2014 لو أن كييف استجابت للمطالب الروسية، والمتمثلة في قبول ضم القرم بدوافع تاريخية، ومنح سكان دونباس وضعا خاصا، والتزام الحياد، بهذا الطرح، يعيد تود ترتيب سردية المسؤولية في الصراع، وهو ما يكشف موقعه النقدي الحاد من الغرب وميله إلى تفكيك الرواية الرسمية السائدة في السياسات الدولية.

يشدد تود في كتابه على أن الحرب الأوكرانية أطاحت بما يسميه "أسطورة السلام الأبدي" في القارة الأوروبية، إذ وجدت أوروبا نفسها في مواجهة مباشرة مع القوة الروسية، ويعد أن موسكو استطاعت الصمود أمام موجة غير مسبوقة من العقوبات الغربية، في حين أخفقت القدرات العسكرية الأمريكية والأوروبية في تحقيق نصر حاسم لصالح أوكرانيا، بالنسبة له، فإن هزيمة الغرب تبدو حتمية، حتى وإن كانت بعض الأطراف تصر على أن الحرب لا تزال مستمرة ولم تحسم بعد.

في أعقاب صدور الكتاب، واجه تود اتهامات بمناصرة بوتين، لا سيما بعد تلميحه إلى أن الولايات المتحدة هي من دفعت روسيا نحو التصعيد من خلال استفزازات متراكمة، وبينما يرى بعضهم أن مواقفه تنم عن قراءة استراتيجية شاملة، يرى آخرون أن آرائه "مذهلة"، و "غير واقعية"، و"استفزازية"، بل يتهمونه بانتهاج مواقف متناقضة عمدا بغرض إثارة الجدل، وتحقيق حضور دائم في المشهد الفكري والإعلامي.

يمتاز كتاب "هزيمة الغرب" بعمقه وغناه بالمعطيات التاريخية والديموغرافية والجيواستراتيجية، إذ ينكب إيمانويل تود على تفكيك الأسباب التي دفعته إلى تبني رؤية متشائمة حيال مستقبل الغرب، و من أبرز هذه الأسباب ما يصفه بـ"العزلة الأيديولوجية"، التي تشكلت نتيجة ميل الكثير من دول العالم إلى اتخاذ موقف الحياد إزاء الحرب في أوكرانيا، وهو ما يرى فيه تود دليلاً على فشل الغرب في فرض قيمه عالميا، ومرد ذلك، في نظره، إلى إصرار الغرب على تصدير منظومته الأخلاقية والسياسية بوصفها مرجعية كونية، وهو ما ترافق مع مواقف تعكس شعورا بالتفوق والتعالي.

ويدرج تود نتائج الحرب الأوكرانية ضمن العوامل التي تعزز أطروحته عن انحدار الغرب، إلى جانب ما يعده أزمة ديموغرافية متفاقمة في المجتمعات الغربية، كما يرى أن المعايير المزدوجة التي يتبناها الغرب أخلاقيا وإنسانيا، قد أسقطت عنه ورقة التوت، وعرت تناقضاته أمام بقية العالم، عادا ذلك مؤشرا لبداية الهزيمة، ويخلص تود إلى أن تراجع الغرب يعود في جوهره إلى تآكل الدولة القومية، وانحدار قطاع التصنيع، وانهيار المنظومة الدينية التي كانت تشكل أحد أعمدته الحضارية.

في رده على كتاب "هزيمة الغرب" لإيمانويل تود، قدم الباحث البرتغالي الجيوسياسي بيبي إسكوبار (بالبرتغالية Pepe Escobar) مقالاً[3] مطولاً بعنوان "كيف هزم الغرب" **(How the West Was Defeated)**، حظي باهتمام لافت، لا سيما أنه يصدر عن محلل معروف باشتغاله المتخصص في الشأن الأوراسي، وبأسلوبه التفصيلي وتحليلاته الموسعة للأحداث العالمية الراهنة. لا تأتي أهمية مقال إسكوبار فقط من موقعه في التحليل الجيوسياسي، بل تتعزز بشهادات مرجعية وازنة، مثل تصريح راي ماكغفرن، المسؤول السابق في وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، الذي وصفه بـ"الأفضل على الإطلاق".

إسكوبار لا يكتفي بدوره ككاتب صحفي، بل يمتد نشاطه إلى التأليف في قضايا تتعلق بالعولمة والتحولات الجيوسياسية العالمية، ما يمنحه أفقا تحليليا متنوعا ومتعمقا، هذا المسار الفكري المتعدد يعكس قدرة إسكوبار على قراءة المتغيرات الدولية من زوايا غير تقليدية، تجعل من مداخلته على كتاب تود جزءا من حوار نقدي أوسع بشأن مآلات النفوذ الغربي، ومستقبل النظام العالمي.

فيما يلي ترجمة للعرض النقدي الذي قدمه بيبي إسكوبار لكتاب إيمانويل تود الموسوم بـ'هزيمة الغرب'، يعرض النص كما ورد، دون أي تدخل أو تعديل، مع إبقاء الباب مفتوحا أمام القارئ لإجراء تحليل نقدي مستفيض لمضمونه ومضامينه الفكرية.

((يعد إيمانويل تود — المؤرخ، والديموغرافي، والأنثروبولوجي، وعالم الاجتماع، والمحلل السياسي — واحدا من القلة المتبقية من رموز الذكاء الفرنسي التقليدي، الذين استمدوا تأثيرهم من تقاليد فرنان برودل، وجان بول سارتر، وجيل دولوز، وميشيل فوكو.

وقد أسهم هؤلاء المفكرون في تشكيل وعي الأجيال الشابة خلال فترة الحرب الباردة، سواء في أقاصي الغرب أو في أطراف الشرق.

الفكرة المذهلة الأولى المرتبطة بكتاب تود الأخير "هزيمة الغرب"، والذي يعد بحق معجزة صغيرة حقيقية، تتمثل في أنه نشر في فرنسا خلال الأسبوع الماضي[4] (بداية كانون الثاني 2024) وذلك داخل نطاق حلف شمال الأطلسي، وهو كتاب صادم، كتبه مفكر مستقل، مستندا إلى حقائق وبيانات موثقة، يهز الأسس التي قامت عليها الروسوفوبيا[5] برمتها، والتي شيدت بشأن سردية "العدوان" الذي نفذه "القيصر" بوتين.

وثمة سبب رئيس آخر يمنح كتابه الصادر عام 2002، والمعنون بـ "بعد الإمبراطورية" (Après l'Empire)، أهمية خاصة، يتمثل في كونه تمهيدا مبكرا لتراجع الإمبراطورية وسقوطها، فقد نشر هذا الكتاب قبل بضعة أشهر فقط من حملة "الصدمة والرعب" (Shock & Awe) في العراق[6]، مما يظهر تنبؤه البارع بالأحداث الجارية والتغيرات السياسية المتلاحقة في العالم.

الآن، يسمح تود لنفسه، في ما يعده كتابه الأخير فقد رفعت الأقلام وجفت الصحف، بالمخاطرة بكل شيء، وبتوصيف "هزيمة" لا تخص الولايات المتحدة فحسب، بل الغرب بأسره، إذ يركّز تحليله بدقة متناهية على الحرب في أوكرانيا.

وإذا أخذنا بعين الاعتبار البيئة السامة داخل حلف شمال الأطلسي، إذ تسود روح العداء لروسيا وثقافة إلغاء الثقة، وحيث يعاقب كل من يخرج عن هذا التصور، فقد اختار تود أن يكون بالغ الحذر في عدم تصوير العملية الجارية بوصفها نصرا روسيا مباشرا في أوكرانيا — (على الرغم من أن هذا الفهم يتبدى بوضوح في كل ما يعرضه، من مؤشرات السلام الاجتماعي، وصولا إلى استقرار "نظام بوتين"، الذي يراه تود نتاجا لتاريخ روسيا، لا نتيجة لفعل رجل واحد).

بدلًا من ذلك، يوجه تود اهتمامه إلى الأسباب الجوهرية التي أفضت إلى تراجع الغرب وسقوطه، ومن بين هذه الأسباب، نهاية الدولة القومية، والانحسار الصناعي، الذي يفسر عجز حلف شمال الأطلسي عن تلبية احتياجات أوكرانيا من الأسلحة، وانهيار البنية الدينية في المجتمعات الغربية إلى ما يشبه "الدرجة الصفرية" (degree zero)، ولا سيما فيما يتعلق بالبروتستانتية، إلى جانب الارتفاع الحاد في معدلات الوفيات في الولايات المتحدة – بما يفوق نظيرتها في روسيا – مصحوبا بزيادة لافتة في نسب الانتحار والجرائم، وأخيرا، هيمنة اللاقيمية الإمبراطورية، التي تتجلى في الهوس بالحروب الدائمة (Forever War).

انهيار البروتستانتية

في تحليله لانهيار البروتستانتية، ينتهج تود مقاربة دقيقة تتسم بالمنهجية الصارمة، إذ يتناول بالتحليل المفصل كلاً من روسيا، وأوكرانيا، وبلدان شرق أوروبا، وألمانيا، وبريطانيا، ودول الشمال الأوروبي، وصولًا إلى "الإمبراطورية"، وفي هذا السياق، يمكن تسليط الضوء على اثنتي عشرة نقطة جوهرية تمثل أبرز ما ورد في هذا الجهد التحليلي المتميز.

1. عند بداية العملية العسكرية الخاصة ((Special Military Operation (SMO) [7] في شباط/فبراير 2022 ، كان إجمالي الناتج المحلي لروسيا مجموعا مع الناتج المحلي لبيلاروس يبلغ فقط 3.3% من مجموع الناتج المحلي للقوى الغربية مجتمعة، والتي تشمل مجموعة حلف شمال الأطلسي فضلاً عن اليابان وكوريا الجنوبية، ويشعر تود بالدهشة لكيفية قدرة هذه النسبة الضئيلة من الـ 3.3% على إنتاج أسلحة أكثر من عملاق الغرب بأكمله، لا سيما وأنها لا تفوز في الحرب فحسب، بل تقلل أيضا من الافتراضات السائدة بشأن الاقتصاد السياسي الليبرالي، والذي يقاس عادة بمعدلات الناتج المحلي.
2. "العزلة الفكرية" و "النرجسية الفكرية" في الغرب – غير قادرة على استيعاب، على سبيل المثال، كيف أن "العالم الإسلامي[8] بأسره ينظر إلى روسيا كشريك بدلاً من أن تكون خصما له".
3. ينكر تود فكرة "الدول الفبرية"[9]، مستشهدا بتوافق لافت في الرؤى بين بوتين وجون ميرشايمر ، المنظّر الواقعي في الولايات المتحدة، الذي يؤكد على السياسة الواقعية، ولأن الدول باتت مضطرة اليوم إلى البقاء في بيئة لا تعني شيئا سوى علاقات القوة، فإنها تتحول إلى "وكلاء هوبسيان."[10]، وهذا يقودنا إلى المفهوم الروسي للدولة القومية، الذي يركز على "السيادة" أي القدرة على أن تحدد الدولة سياستها الداخلية والخارجية بشكل مستقل، من دون أي تدخل أجنبي على الإطلاق[11].
4. إن انهيار ثقافة المؤسسة الأمريكية (الواسب (WASP))[12]، شيئاً فشيئاً، أدى بها، "منذ الستينيات"، إلى أن تصبح "إمبراطورية محرومة من مركز ومن مشروع، كائنا عسكريا في جوهره، تديره مجموعة تفتقر إلى الثقافة (وفقا للشريعة الأنثروبولوجية)"، وهذا هو تعريف تود للمحافظين الجدد في الولايات المتحدة.
5. الولايات المتحدة بصفتها كيانا "ما بعد إمبريالي"، تبدو مجرد قشرة من القوة العسكرية، إذ تفتقر إلى الثقافة الاستخباراتية الحيوية، مما يؤدي إلى توسع عسكري مضخَّم في مرحلة يشهد فيها اقتصادها انكماشا هائلاً في قاعدته الصناعية، وكما يؤكد تود: "فإن الحرب الحديثة، في غياب الصناعة، تظل تناقضا في حد ذاتها".

6. في الفخ الديموغرافي: يوضح تود كيف أن "استراتيجيي واشنطن نسوا أن الدولة التي يتمتع شعبها بمستوى تعليمي وتقني عاليين، حتى وإن كان في تراجع، لا تفقد قوتها العسكرية"، وهذا هو بالضبط حال روسيا في ظل حكم بوتين.
7. هنا نصل إلى جوهر حجج تود: إعادة تفسيره لفكر ماكس فيبر في كتابه "الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية"[13] (The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism)، الذي نشر قبل قرن من الزمان، في عامي 1905/1904، ويقول تود: "إذا كانت البروتستانتية هي السبب في صعود الغرب، فإن وفاتها اليوم هي السبب في الانحلال والهزيمة".

ويبرز تود بوضوح كيف أن "الثورة الإنجليزية المجيدة" عام 1688، وإعلان استقلال الولايات المتحدة عام 1776، والثورة الفرنسية عام 1789، تمثل الركائز الحقيقية للغرب الليبرالي، ومن ثم، فإن "الغرب" الموسع لا يعد "ليبراليا" من الناحية التاريخية، إذ إنه أفضى أيضا إلى "الفاشية الإيطالية، والنازية الألمانية، والعسكرية اليابانية".

قصارى الكلام، إن تود يوضح كيف أن البروتستانتية فرضت تعليم القراءة والكتابة على الشعوب التي خضعت لهيمنتها، "لأن جميع المؤمنين يتحتم أن يصلوا مباشرة إلى الكتاب المقدس"، والسكان المتعلمون قادرون على تحقيق التطور الاقتصادي والتكنولوجي؛ فالدين البروتستانتي أسهم –عن غير قصد– في تشكيل قوة عمل فعالة ومتميزة.

وبهذا المعنى، فإن ألمانيا كانت "في قلب التطور الغربي"، حتى وإن كانت الثورة الصناعية قد انطلقت من إنجلترا.

الصياغة الرئيسة التي يطرحها تود، والتي لا تقبل الجدل، تتمثل في قوله: "العامل الحاسم في صعود الغرب كان ارتباط البروتستانتية بتعلم القراءة والكتابة".

وعلاوة على ذلك، يؤكد تود أن البروتستانتية كانت في قلب تاريخ الغرب في مناسبتين حاسمتين: أولًا، من خلال دورها كمحفّز تعليمي واقتصادي، إذ إن الخوف من اللعنة، والحاجة إلى الإحساس بأن الله قد اختار الفرد، أسهما في تشكيل أخلاق عملية قوية، وأخلاق جماعية صارمة. وثانيا، من خلال ترسيخ فكرة عدم المساواة بين البشر، وهي الفكرة التي يمكن أن نستحضر من خلالها ما يعرف بـ "مسؤولية الرجل الأبيض".

ويذهب تود إلى أن انهيار البروتستانتية أدى في نهاية المطاف إلى تقويض تلك الأخلاق العملية، فاسحا المجال أمام الجشع الجماعي، وهو ما يجسد جوهر النيوليبرالية.

8. إن انتقاد تود اللاذع لروح عام 1968 يستحق، بلا شك، كتابا مستقلاً بذاته، فهو يشير إلى ما يصفه بـ "إحدى الأوهام الكبرى في ستينيات القرن الماضي – بين الثورة الجنسية في العالم الأنجلو–أمريكي [14] وأحداث أيار/مايو 1968 في فرنسا"؛ ألا وهو "الاعتقاد بأن الفرد سيكون أعظم إذا تحرر من الجماعة"، وقد أدى هذا الاعتقاد، في نظره، إلى كارثة لا مفر منها،[15] إذ يقول: "نحن اليوم متحررون جماعيا من المعتقدات الميتافيزيقية، سواء أكانت أساسية أم مشتقة، شيوعية أم اشتراكية أم وطنية، ونعيش تجربة الفراغ".

ومن هذا المنطلق، أصبحنا –كما يصف– "جماعة من الأقزام التقليديين، الذين لا يجرؤ ون على التفكير بأنفسهم، لكنهم في الوقت ذاته يكشفون عن قدرة على التعصب لا تقل عن تعصب مؤمني العصور القديمة".

9. يقوم التحليل الموجز الذي يقدمه تود للمعنى الأعمق لظاهرة التحول الجنسي بهدم فكرة "كنيسة الووك"[16]، الممتدة من نيويورك إلى مختلف مناطق الاتحاد الأوروبي، وهو تحليل من شأنه أن يثير موجات متكررة من الغضب والانفعال.

ويبرز تود كيف أن التحول الجنسي يعد "إحدى رايات العدمية التي تعرف الغرب في الوقت الراهن؛ هذا الدافع نحو التدمير، الذي لا يستهدف الأشياء والبشر فحسب، بل يمتد أيضا ليشمل الواقع ذاته".

وثمة خاطرة جديرة بالتأمل في هذا السياق: "إن أيديولوجية التحول الجنسي تزعم أن الرجل يستطيع أن يتحول إلى امرأة، وأن المرأة يمكنها أن تتحول إلى رجل، هذا تأكيد زائف، بل إنه، بهذا المعنى، يقترب من جوهر العدمية الغربية"، وتزداد الأمور تعقيدا عند النظر في الآثار الجيوسياسية المترتبة على هذه الظاهرة.

يقيم تود ارتباطاً ممتعا على المستويين العقلي والاجتماعي بين هذه "الطائفة المزيفة"، كما يسميها، وسلوك القوة المهيمنة غير المستقرة في العلاقات الدولية، فعلى سبيل المثال، تحول الاتفاق النووي الإيراني، الذي تم التوصل إليه في عهد أوباما، إلى نظام عقوبات صارم

خلال إدارة ترامب، ويعلق تود على ذلك بالقول: "السياسة الخارجية الأمريكية، بطريقتها الخاصة، تتغير مثل تغير الجنسيات".

10. يتحدث تود عن "الانتحار بمساعدة الغير"[17] الذي تعاني منه أوروبا، ويذكّرنا كيف أن أوروبا كانت، في بداياتها، تستند إلى ركيزة المحور الفرنسي–الألماني، غير أن هذه الشراكة، بعد أزمة الاقتصاد العالمي في عامي 2007 و 2008، تحولت إلى ما يسميه تود "الزواج الأبوي" أو "الزواج من مستبد" (patriarchic marriage)، إذ أصبحت ألمانيا هي الشريك السيد المسيطر، الذي لم يعد يصغي إلى شريكه الفرنسي.

وقد أدت هذه التحولات إلى تخلي الاتحاد الأوروبي عن أي محاولة جادة للدفاع عن مصالح أوروبا الذاتية، بما في ذلك فصلها الاستراتيجي عن روسيا في مجالي الطاقة والتجارة، وصولاً إلى فرض عقوبات ذاتية أضرت بها اقتصاديا، ويحدد تود، بدقة، أن محور باريس–برلين قد تم استبداله بمحور لندن–وارسو–كييف، وهو ما أدى إلى "نهاية أوروبا كفاعل جيوسياسي مستقل".

ويشير تود إلى أن هذا التحول الجذري جاء بعد عشرين عاما فقط من الموقف المشترك بين فرنسا وألمانيا في معارضتهما لحرب المحافظين الجدد (neocon) على العراق.

11. يعرف تود بدقة حلف شمال الأطلسي (NATO) مستندا إلى الجانب "غير المعلن" من حيث الوظيفة، فيقول: "نلاحظ أن الآلية العسكرية والإيديولوجية والنفسية لحلف شمال الأطلسي لا تهدف إلى حماية أوروبا الغربية، بل إلى السيطرة عليها".

12. انسجاما مع عدد من المحللين في روسيا والصين وإيران، فضلاً عن المستقلين في أوروبا، يؤكد تود بثقة أن الهواجس الأمريكية المستمرة، منذ تسعينيات القرن الماضي، والرامية إلى قطع العلاقات بين ألمانيا وروسيا، ستبوء بالفشل في نهاية المطاف، بل إنه يرى أن التعاون بين البلدين أمر محتوم، نظرا إلى أن تخصصاتهما الاقتصادية تجعلهما يكملان بعضهما بعضا، ومن المتوقع، بحسب تود، أن تفضي الهزيمة في أوكرانيا إلى فتح الباب أمام هذا التعاون، طالما أن هناك "قوة جذب" متبادلة بين ألمانيا وروسيا.

قبل ذلك، وعلى خلاف معظم "المحللين" الغربيين المنتمين إلى التيار السائد في مجتمع حلف شمال الأطلسي[18]، يدرك تود أن موسكو على وشك تحقيق انتصار ليس فقط على

أوكرانيا، بل على الحلف بأكمله، مستفيدة من مدة زمنية محددة وضعها الرئيس بوتين في بداية عام 2022، إذ يراهن بوتين على إطار زمني مدته خمس سنوات، وهي المرحلة النهائية من العمليات العسكرية الخاصة، التي يفترض أن تنتهي بحلول عام 2027.

ومن المثير للاهتمام مقارنة هذا التقدير بما صرح به وزير الدفاع الروسي سيرغي شويغو في العام السابق، إذ أشار إلى أن العمليات العسكرية في المناطق الشرقية لأوكرانيا ستنتهي بحلول عام 2025.

وبغض النظر عن الموعد النهائي الدقيق، فإن تود يرى أن النصر الكامل لروسيا مضمون ضمن هذا السياق، إذ إن المنتصر هو من يملك حق تحديد الشروط جميعا، لذا لا مجال للمفاوضات، ولا لوقف إطلاق النار، ولا حتى لتجميد الصراع، خلافًا لما يحاول المهيمن (Hegemon) الترويج له، في مسعى يائس للحفاظ على موقعه.

دافوس يتنزع انتصار الغرب

الميزة الواضحة لتود، التي تبرز بجلاء في الكتاب، هي استخدامه للتاريخ والأنثروبولوجيا لإعادة توجيه الوعي الزائف للمجتمع الغربي، وهكذا، من خلال التركيز على دراسة بنى المجاميع المتجانسة الخاصة في أوروبا، ينجح في تفسير الواقع بطريقة تفوق تماما الجماهير الغربية المغسولة عقولها والباقية تحت تأثير النيوليبرالية المتسارعة.

لا شك أن كتاب تود، القائم على الواقع، لن يحظى باستحسان الطبقة النخبوية في دافوس[19]، فما يجري هذا الأسبوع هناك، في دافوس، أحاطنا بالكثير؛ فكل شيء أصبح مكشوفا الآن.

المصادر والتعليقات الختامية

(1) يحمل الكتاب عنوانه الأصلي بالفرنسية "La Défaite de l’Occident"، وقد صدر عن دار النشر الفرنسية غاليمار (Gallimard) في كانون الثاني/يناير 2024، ضمن عمل يمتد على 374 صفحة، وقد أُنجزت ترجمته إلى اللغة الإنجليزية تحت عنوان "The Defeat of the West"، فيما أتيح للقارئ العربي مطلع عام 2025 من خلال الترجمة الصادرة عن دار الساقي بجهد المترجم محمود مروّة (المترجمة).

(2) الكتاب (مجموعة مقابلات) هو تحليل معمق للوضع الجيوسياسي العالمي في ظل النزاعات المعاصرة، لا سيما الحرب في أوكرانيا، وقد بيعت منه عشرات الآلاف من النسخ، (المترجمة نقلًا عن مصادر عديدة بالفرنسية منها https://www.lefigaro.fr/vox/monde/emmanuel-todd-la-troisieme-guerre-mondiale-a-commence-20230112 كذلك https://vpk.name/en/675692_todd-the-confrontation-will-last-five-years-and-will-end-with-russias-victory.html (رغم أنّ الكتاب يُنسب إلى إيمانويل تود، فإنّه لم يُعثر على أي نسخة منشورة له، لا في فرنسا ولا في اللغة الإنكليزية، كما إن الفهارس الببليوغرافية وأرشيفات المكتبات لا تسجّل مؤلَّفًا بهذا العنوان ضمن أعماله المنشورة، ويقتصر ذكره على بعض المقالات والمواد الصحافية (المذكورة آنفًا)، فضلًا عن مقابلات إعلامية كثيرة أُجريت مع تود وحملت هذا العنوان، ومن ثمّ، فإنّ نسبة هذا العمل إلى مؤلَّف منشور وموثّق تبقى محل إشكال علمي يتطلّب التحقق والتدقيق (المترجمة)).

(3) نشر المقال موقع سبوتنيك الدولي (Sputnik International) على الإنترنت في 18/ 1/ 2024 (المترجمة). https://sputnikglobe.com/

(4) يقصد الكاتب (بيبي اسكوبار) تأريخ نشر الكتاب في الأسبوع الأول من شهر كانون الثاني/يناير 2024 (المترجمة).

(5) مفهوم "روسوفوبيا" يُشير إلى ظاهرة رهاب روسيا، أي الخوف أو الكراهية تجاه روسيا، والروس، والثقافة الروسية، وهذه الظاهرة ليست حديثة النشأة، بل تعود جذورها إلى قرون عديدة مضت، ويُعتقد أن أول من أسّس لهذا المفهوم هو الفرنسي أستولف دي كوستين، مؤلف كتاب "روسيا في عام 1839" (La Russie en 1839)، الذي نُشر عام 1843، وتناول فيه روسيا بلغة تنطوي على قدر كبير من الازدراء، إذ وصف حياة الروس، سواء من عامة الشعب أو من النبلاء في الإمبراطورية الروسية، بطريقة سلبية للغاية.
وقد قال في هذا السياق: "لا تخلو العقلية الروسية من العبودية في طريقتها لفهم ورؤية الأشياء، لقد وجدت أمة غبية، يتظاهر سكانها بالسعادة لأجل أشياء بسيطة وساذجة، ورغم ما فعله بطرس الأكبر ليجعلهم يبدون أوروبيين مثلنا – وقد تظن ذلك من مظهر ملابسهم الخارجية للوهلة الأولى – لكنك سرعان ما تدرك أن جلد الدب ما زال ينبت تحتها"، وغير ذلك من العبارات ذات الطابع التحقيري.
وقد شاع استخدام هذا المفهوم على نحو واسع خلال مدة الحرب الباردة بين الولايات المتحدة وحلفائها من جهة، والاتحاد السوفيتي السابق من جهة أخرى، إذ تطورت العديد من الصور النمطية في الغرب بشأن الروس، والتي استُخدمت أساسًا كأدوات في الحرب السياسية ضد الاتحاد السوفيتي (السابق).
وتتهم روسيا اليوم الدول الغربية بإذكاء مفهوم "روسوفوبيا" وتعزيز سياسات العداء تجاه الروس، وهي سياسات ترى موسكو أنها تصاعدت تصاعدًا ملحوظًا منذ اندلاع الحرب الروسية في الأراضي الأوكرانية في 24 شباط/فبراير 2022. (المترجمة، يُنظر https://akhbarelyom.com/news/newdetails/4038047/ و https://eurasiaar.org)

(6) الصدمة والرعب (Shock & Awe) هو الاسم الذي أُطلق على الحملة العسكرية التي شنتها الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها على العراق في 20 آذار/مارس 2003، وعلى خلاف ما توقعته الكثير من السيناريوهات العسكرية التي سبقت الهجوم، أو تلك التي روّجت لها وسائل الإعلام الأمريكية، كانت أبرزها التغطية الصادرة في عدد 18 آذار/مارس 2003 من مجلة "نيوزويك"، التي أطلقت اسم "الصدمة والرعب" على الضربة الأولى المتوقعة على بغداد، مشيرة إلى أنها "ستتضمن" إطلاق ثلاثة آلاف قنبلة موجهة بدقة، بهدف إحداث صدمة نفسية واضطراب في التفكير لدى القادة العسكريين العراقيين.
وتحمل هذه الحملة العسكرية أثرًا بالغ الأهمية على مستقبل العراق ومنطقة الشرق الأوسط، وكذلك على الولايات المتحدة الأمريكية، بل وعلى النظام الدولي ككل، إذ تُعدّ هذه العملية العسكرية، بما تحمله من قوة وعدة

وعدد، وبما تنطوي عليه من تفاصيل معقدة وذرائع متعددة، واحدة من أكبر الحملات العسكرية التي شهدها العالم منذ الحرب العالمية الثانية (المترجمة نقلًا عن مواقع عديدة على الإنترنت).

(7) https://sputnikglobe.com/20240117/russias-special-military-operation-in-ukraine-and-how-it-is-progressing-1105665248.html

(8) https://sputnikglobe.com/20231210/doha-summit-us-risks-alienating-muslim-world-by-vetoing-gaza-ceasefire-resolutions-1115510496.html

(9) نسبة إلى المفكر الاجتماعي الألماني ماكس فيبر (١٨٦٤-١٩٢٠) الذي كان عالمًا في الاقتصاد والسياسة، ومن بين مؤسسي علم الاجتماع الحديث ودراسة الإدارة العامة في مؤسسات الدولة، فيبر هو أحد أبرز رواد المدرسة الألمانية والعالمية في علم الاجتماع (المترجمة).

(10) مصطلح "الهوبسيان" (Hobbesian) يُشير إلى كل ما يتعلق بالفيلسوف الإنجليزي توماس هوبز (Thomas Hobbes) أو يتبع أفكاره ونظرياته. ويُعد توماس هوبز من أبرز فلاسفة العصر الحديث، وهو فيلسوف سياسي وعالم في علم النفس، عُرف بأطروحاته المؤثرة بشأن طبيعة السلطة والمجتمع.
من أشهر إسهاماته نظرية العقد الاجتماعي، التي قدمها في كتابه الشهير "ليفياثان" (Leviathan)، إذ يرى أن وجود حكومة مركزية قوية هو أمر ضروري لضمان النظام والاستقرار داخل المجتمع، وفي مجال علم النفس، اشتهر هوبز بتصوره للطبيعة البشرية بوصفها طبيعة "شريرة" و"قاسية"، عادًّا أن البشر يعيشون في حالة صراع دائم على السلطة والموارد.
وبناءً على ذلك، يُستخدم مصطلح "الهوبسيان" لوصف كل ما يتماشى مع أفكار هوبز، سواء في الفلسفة السياسية أو علم النفس، وغالبًا ما يُرتبط هذا المفهوم بالفكر الواقعي، والنظرة المتشائمة أو السلبية تجاه الطبيعة البشرية والمجتمع (المترجمة).

(11) **"**يرى جون ميرشايمر أن أوكرانيا، التي استولت قوات الناتو (الأمريكية والبريطانية والبولندية) على جيشها منذ عام 2014 على أقل تقدير، كانت بحكم الأمر الواقع عضوًا في الناتو، في المقابل كان الروس واضحين في أنهم لن يتسامحوا أبدًا مع عضوية أوكرانيا في الناتو، لذا فإن هؤلاء الروس يشنون -كما أخبر بذلك بوتين في اليوم السابق للهجوم- حربًا دفاعية ووقائية من وجهة نظرهم، ويضيف ميرشايمر أنه لن يكون لدينا أي سبب للابتهاج بالصعوبات المحتملة للروس نظرًا لأن هذه المسألة وجودية بالنسبة لهم، فكلما كان الأمر أصعب، كانت ضرباتهم أشد، ويبدو لي أن هذا التحليل صحيح، لكن أود أن أضيف تكملةً ونقدًا لتحليل ميرشايمر، فهو يرى أن الحرب في أوكرانيا إذا كانت بالنسبة للروس وجوديةً، فهي بالنسبة لأمريكا مجرّد "لعبة" من ألعاب القوة الكثيرة، مثل فيتنام والعراق وأفغانستان، مجرد كارثة أخرى بين كثيرات، لا يهم، البديهية الأساسية للجيوسياسة الأمريكية هي: «يمكننا أن نفعل ما نريد لأننا آمنون وبعيدون، بين محيطين، ولن يحدث لنا شيء على الإطلاق». لن يكون هناك شيء وجودي بالنسبة لأميركا، وهنا القصور التحليلي هو ما يقود بايدن اليوم إلى هذا الاندفاع المتهور." (**عن ايمانويل تود في مقابلة له** نُشِرت بالفرنسية في جريدة لو فيغارو، في 12 كانون الثاني/يناير 2022 ترجمها إلى العربية أحمد نظيف لموقع حبر على الإنترنت في 19 كانون الثاني /يناير 2023 https://www.7iber.com/politics-economics)

(12) يُشار إلى المؤسسة الأمريكية بـ"الواسب" (WASP) وتعني (White Anglo-Saxon Protestant) أي البروتستانت البيض الأنغلو ساكسون، وهم تاريخيًا الطبقة المميزة في المجتمع الأمريكي، التي سيطرت على السياسة والمال والثقافة، والقضاء، مقصين البيض الآخرين، من ألمان وأيرلنديين ويهود وغيرهم، وبقي نفوذ هذه المؤسسة حتى الحرب العالمية الثانية، حينما شهدت نهايتها تحولًا نحو إعطاء أو حصول من هم خارجها على مراكز وحقوق أفضل، وشكلت الستينيات، وانتخاب "جون كنيدي"، الأيرلندي الكاثوليكي، رئيسًا، نقطة تحول هائلة في وضع الواسب، الذي مهد بعد عقود لانتخاب رئيس من أصل أفريقي، (المترجمة نقلًا عن المقال الموسوم "صراع الأقليات و«الواسب» لـ أحمد الصراف منشور في 15 آب/أغسطس 2017 على موقع صحيفة القبس الكويتية على الإنترنت https://www.alqabas.com/article).

(13) في مؤلَّفه "الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية" (The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism)، يتناول ماكس فيبر العلاقة بين المنظومة الأخلاقية البروتستانتية ونشأة الرأسمالية الحديثة، ويطرح فيبر فرضيّته القائلة، إنّ القيم التي أفرزتها البروتستانتية –مثل الاجتهاد، والانضباط، والتواضع– أسهمت في تهيئة بيئة فكرية واجتماعية ملائمة لتشكّل الرأسمالية وتطورها، ويرى أنّ هذه القيم عزّزت ثقافة العمل الجاد والفعّال، الأمر الذي قاد إلى تراكم الثروة، وتحقيق مستويات ملحوظة من الازدهار الاقتصادي، ولا سيّما في المجتمعات البروتستانتية مقارنةً بنظيراتها الكاثوليكية (المترجمة).

(14) يُستَخدم مصطلح "الثورة الجنسية" عادةً للإشارة إلى حركة اجتماعية وسياسية نشأت في ستينيات القرن العشرين وامتدّت آثارها إلى سبعينياته، غير أنّ هذا المفهوم لم يكن حكرًا على تلك الحقبة وحدها؛ إذ ورد استعماله في وقت أبكر، منذ أواخر عشرينيات القرن الماضي على الأقل، ويُعزى هذا الاستخدام المبكر، في الغالب، إلى التأثير الذي مارسته الأفكار النفسية والاجتماعية المتقدّمة التي قدّمها سيغموند فرويد، ولا سيّما ما يتصل بمفهوم التحرّر الجنسي (المترجمة).

(15) كانت ثورة الطلاب في فرنسا عام 1968 نقطة تحوّل بارزة في التاريخ الاجتماعي الفرنسي، إذ شكّلت انتفاضة غيرت الواقع الاجتماعي بشكل جذري، وما زالت تأثيراتها ممتدة حتى الوقت الحاضر، ويظهر ذلك بوضوح في تصريح الرئيس الفرنسي، نيكولا ساركوزي، عند بداية فترة حكمه، حين عبّر عن رغبته في محو إرث حركة مايو 1968، ويُنظر إلى هذه الحركة من التيار اليميني في فرنسا على أنّها تهديد للسلطة التقليدية، إذ يُعتقد أنّها أدت إلى تشويه المعايير السلوكية للمواطنين، وتشجيعهم على التقليل من قيمة العمل، في المقابل، يرى خصوم هذا التيار أنّ الحركة وفّرت فرصة لإرساء أسس فرنسا جديدة، تقوم شعاراتها على الحرية والعدالة الاجتماعية (المترجمة).

(16) مصطلح "ووك" (woke)، الذي يعني حرفيًا "يقظ"، أصبح اليوم رمزًا للوعي الاجتماعي والسياسي بالظلم والتمييز الذي تواجهه الأقليات الإثنية والجنسية والدينية، ويعود أصل هذا المصطلح إلى الكاتب والناشط الأمريكي بوكر تاليافرو واشنطن (Booker Taliaferro Washington) (1856-1915)، الذي دعا في كتابه "يقظة الزنجي الأسود" (Awakening of the Negro) المجتمع الأمريكي إلى الاعتراف بتحديات الأمريكيين من أصل أفريقي، وتعزيز مكانتهم الاجتماعية بما يتوافق مع كرامتهم الإنسانية، رغم أنّ بعض النقاد رأوا أن هذه النداءات ركّزت على المبادئ الأخلاقية من دون الأخذ بعين الاعتبار الواقع الثقافي والسياسي والاقتصادي المحيط.

وتجذر مفهوم "الووكية" في الولايات المتحدة ضمن سياق مذاهب ما بعد الحداثة التي استثمرت أفكار فلاسفة فرنسيين بارزين، من أمثال سارتر (1905-1980)، وفوكو (1926-1984)، ودريدا (1930-2004)، وليوتار (1924-1998)، ودلوز (1925-1995)، والذين أسهموا في تأسيس ما يُعرف بـ "النظرية الفرنسية" (French Theory)، ودعوا إلى مراجعة والانقلاب على أشكال العقلانية التقليدية الموروثة.

ومع مرور الوقت، اكتسب مصطلح "ووك" أبعادًا أيديولوجية مهمة، خاصةً مع استخدامه المكثف في الحركات الاجتماعية والمظاهرات، لا سيما بعد أحداث عام 2014 التي شهدت احتجاجات واسعة ضد العنصرية والظلم الاجتماعي، ومع انتشار المصطلح في وسائل التواصل الاجتماعي، تباينت مفاهيمه وتعددت استخداماته؛ فقد استغله التيار التقدمي لتعزيز المطالبة بالعدالة الاجتماعية والمساواة، بينما وظفه التيار المحافظ أداةً للنقد والهجوم على المتطرفين فكريًا وعلى المشاركين في الحركات الاجتماعية، مما أدى إلى إعادة تعريفه كرمز لما يُنظر إليه على أنه تعجرف النخبة الليبرالية المرتبطة بالحزب الديمقراطي.

واستمرارًا لهذا التطور، شمل مصطلح "ووك" خلال فترة ظهور ترامب الفئات التي تدافع عن تخفيض ميزانيات الشرطة، وتعزيز حقوق مجتمع الميم، وتهميش دور العقائد الدينية في الحياة العامة، والدفاع عن حقوق الأقليات والمهاجرين، بما في ذلك من دخلوا البلاد بطرق غير قانونية، والمطالبة بمراجعة التاريخ الأمريكي وفق مبادئ نظرية العرق الحرجة (Critical Race Theory)، فضلًا عن وضع حماية البيئة ضمن الأولويات قبل الأولويات الاقتصادية، ويشير الجمهوريون إلى أن مواقف وأفكار "الووك" تُعدّ تطبيقًا معاصرًا لما يُعرف بـ الماركسية الثقافية في السياق الأمريكي.

ويكشف استطلاع أجرته صحيفة وول ستريت جورنال (Wall Street Journal) في نيسان/ أبريل 2023 أن 55% من الجمهوريين يرون أن محاربة إيديولوجيا "الووك" في المدارس وأماكن العمل أهم من حماية الضمان الاجتماعي والرعاية الصحية، في حين يشن المحافظون هجومًا على المصطلح لحماية "القيم العائلية" التقليدية، التي تقوم على مفهوم الزوج والزوجة، مع التركيز على الحفاظ على هذا الأنموذج من دون الالتفات إلى ما يُعرف بـ حقوق المتحولين جنسيًا أو المتزوجين من الجنس نفسه، (المترجمة نقلًا عن عدة مصادر على الإنترنت منها https://www.independentarabia.com/node و https://www.aljazeera.net/opinions/2023/6/2/woke).

(17) الانتحار بمساعدة الغير، المعروف أيضًا باسم الموت بمساعدة الغير أو الموت بمساعدة طبية، يُشير إلى تقديم المساعدة لشخص آخر للانتحار، ويُستخدم المصطلح عادة للإشارة إلى الحالات التي يشارك فيها الطبيب أو أحد مقدمي الرعاية الصحية في هذا الفعل.

وفي الحالات التي يعدّ فيها الشخص مؤهلًا بموجب القوانين المنظمة للانتحار بمساعدة الطبيب، تقتصر المساعدة عادةً على وصف جرعة قاتلة من الأدوية التي يتناولها الشخص بنفسه، (المترجمة نقلًا عن الموسوعة الحرة، ويكيبيديا https://ar.wikipedia.org/wiki).

(18) https://sputnikglobe.com/20240111/baltic-states-join-ukraine-in-seeking-to-draw-nato-into-open-conflict-with-russia-1116121396.html

(19) عُقدت فعاليات المؤتمر السنوي للمنتدى الاقتصادي العالمي (دافوس) في المدة من 15 إلى 19 كانون الثاني/يناير 2024، تحت شعار "إعادة بناء الثقة"، وذلك في ظل سياق جيوسياسي واقتصادي يُعدّ الأكثر تعقيدًا منذ عقود، وقد افتُتح الاجتماع السنوي الرابع والخمسون لهذا العام لمناقشة القضايا المهمة والملحة، مع التركيز على تحقيق الهدف الرئيس لدافوس 2024، وهو إعادة بناء الثقة، عبر ترسيخ مبادئ الشفافية، والاتساق، والمسؤولية في السياسات الاقتصادية والاجتماعية العالمية (المترجمة).